(3)

الفقر..
وكيف تناوله أدب الرافعي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفقر.. وكيف تناوله أدب الرافعي[1]

"فإن السعة سعة الخلق لا المال،

وإن الفقر فقر الخ□ل□ق لا العيش"[2]

تناول الرافعي قضية الفقر وأولاها اهتمامه وعنايته في أكثر من عملٍ له، فكتب في كتابه الأشهر (وحي القلم) عدة مقالات منها: (سمو الفقر)، و(حديث قطين)، و(الطفولتان)، و(أحلام في الشارع)، و(أحلام في القصر)، و(قصة زواج وفلسفة المهر)، وقد عالج تلك القضية التي أراها مسيطرة على كثير من كتاباته بشكل رمزي متميز.

---

(1) أصل هذه الدراسة ورقة تقدمتُ بها إلى الملتقى الأدبي الأول لرابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة عن الرافعي في الفترة من 27 – 28 ذو الحجة 1424 هـ = 18 – 19 فبراير 2004م، ونشرت مشوهة بعد اختصارها حتى في العنوان ضمن العدد الخاص (43،44) من مجلة الأدب الإسلامي التي تصدر عن الرابطة، وكنت قد فقدت الأصل منذ زمن؛ فرأيت أن أعيد كتابة هذه الدراسة من جديد.

(2) وحي القلم، ص 119.

أما كتابه (المساكين) الذي أصدره في عام 1917 فهو قطعة إنسانية صاغها لأسباب نبيلة أوجزها بيانيًا في مقدمته للطبعة الأولى بقوله: "هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقَعة جديدة... فقد- والله - بليت أثواب هذا الفقر، وإنها لتنسدل على أركانه مزقًا متهدلة يمشي بعضها في بعض، وإنه ليلفقها بخيوط من الدمع، ويمسكها بُرقع من الأكباد، ويشد بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى هم، وأقبحُ من الفقرُ ألا يظهر الفقر كاسيًا، أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية، أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى الأولين"[1]

وحسب قوله فقد كتب كتابه (المساكين) وكتب فيه عن الفقر وما هو من باب الفقر، لا لمحوه؛ ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه، ثم كتب عن الغنى وما إليه، لا رغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله، فالرافعي لم يتناول قضية الفقر ليفسد على الأغنياء حياتهم، فالغنى أمرٌ مباحٌ مشروعٌ طالما أعطى الغنيُ الفقيرَ حقه من مال الله الذي آتاه ولم يبخل به.

لقد أخرج الرافعي كتابه هذا من رحم المعاناة ولم يكتبه من برج عاجي بمنأى عن الناس، فحسب رواية تلميذه العريان فقد" كان الرافعي يقرأ فيما يرد

(1) كتاب المساكين، ص 17.

إليه من بريد قرائه كثيرًا من المآسي الفاجعة يسأله أصحابها الرأي أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلامًا مكتوبًا، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل"[1]، واستلهم كتابه الذي حمل اسم (المساكين) من واقع الحياة لا من محض الخيال، فالشيخ (علي) في الحقيقة شخص واقعي كان يعيش في (منية جناج) بمركز دسوق بريف مصر؛ حيث كان يقطن آل البرقوقي أصهار الرافعي.

ويبدو أن الكتاب قد آتى أُكله وأصاب هدفه؛ فمسَّ شغاف قلوب القراء لما انطوى عليه من معانٍ إنسانية نبيلة أثارت مكنونات النفس وحرَّكت سواكنها، حتى إن أحمد زكي باشا ليقول مخاطبًا الرافعي بعد مطالعة هذا الكتاب:" لقد جعلتَ لنا (شكسبير) كما للإنجليز (شكسبير)، و(هيجو) كما للفرنسيين (هيجو)، و(جوتة) كما للألمان (جوتة)"[2]

مفهوم الفقر عند الرافعي

يرى الرافعي أن الفقر والغنى قضيتان أزليتان منذ خلق الإنسان الأول،" فقد كان الفقر عريانًا يوم كان آدم في الأرض وليس عليه إلا ما خصف من ورق الجنة، وعاش دهرًا تحت تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب، ويمرح في ثياب

(1) حياة الرافعي، ص 65.
(2) المساكين، ص 9.

بيضاء من أشعة القمرين إذ لم يكن يعرفه أحد بعد ولا استطار به سماع السوء في الأحياء؛ بل كان عنصرًا مجهولًا في غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعاني الفقرية غير شعور طبيعي لا زيغ في تأويله عن الطبيعة، وهو شعور المعدة القوية المعصوبة التي تتحمل الشعر والخيال وفنون الكذب العقلي، ولا تشعر إلا لتطلب، ولا تطلب إلا ما تجد، ومتى وجدت وانطفأ نهمها فليس إلا قوة الجسم وانبساط النفس وحمدًا لله من كل ضرب من ضروب الجمال في الخليقة"[1]

ويؤصل الرجل لنشأة الفقر بمعناه الأوسع، وليس الافتقار إلى المال فقط، ويدلل على أزليته وقِدمه؛ حيث نشأ منذ خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض، يقول:" كانت عداوة ابني آدم ﴿**إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ**﴾، وفتحت الصفحة الأولى من تاريخ الدم الإنساني في الأرض، فكان البغض أول سطورها، وجاء من بعده الفقر، وخطت بعد ذلك سطور وسطور كلها يلتقي إلى هذين المعنيين، يومئذٍ عُرِفَ هذا الفقرُ، وأصبح يتلبس في كل إنسان بمعنى يلائمه، إذ لم تعد الحياة بل الوسائل التي يدفع بها الموت، ومنها الموت نفسه، فصار البغض وسيلة، والحسد وسيلة، والطمع وسيلة، والقتل وسيلة، وكلٌّ لأن الإنسان فقير بمعنى من معاني الفقر، وما البغض إلا فقر من المحبة، ولا الحسد إلا فقر من الثقة،

(1) نفسه، ص 19.

ولا الطمع إلا فقر من العقل"[1]

وفي ضوء ذلك يمكننا القول إن الفقر عند الرافعي فقران:

1. فقرٌ ماديٌّ.
2. فقرٌ معنويٌّ.

فالفقر المادي هو عوز الإنسان إلى المال الذي يسد به حاجاته الأساس من مأكل ومشرب وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس في معاشهم؛ أما الفقر المعنوي فهو افتقاد النفس فضيلة من الفضائل أو خلق من الأخلاق الكريمة كالرضا والزهد والمودة والوفاء....إلخ، ويرى الرافعي أن الفقر المعنوي أقدم من الفقر المادي؛ لأنه متجذر في طبيعة الإنسان الأرضية، يقول:" ولقد كان الفقر قبل أن يكون المال، ثم وجد المال، فيما صنع أن يلقى أهله الأغنياء من هموم الدنيا وبأساء الحياة ما لو استطاعوا لافتدوا من عذابه كل ما في أيديهم ولو أن لهم طلاع الأرض ذهبًا"[2]

إنَّ الإنسان مهما بلغ غناه في الدنيا فهذا لا يعني أنه غنيٌّ غنًى مطلقًا، فليس بالضرورة أن يكون غَنِيُّ المال غَنِيَّ النفس والقلب في ذات الوقت؛ لأن" في الحياة أشياء مكذوبة تكبر الدنيا وتصغر النفس، وفي الحياة أشياء حقيقية تعظم بالنفس

(1) المساكين، ص 19.

(2) نفس الموضع.

وتصغر بالدنيا؛ وذهبُ الأرض كله فقرٌ مدقعٌ حين تكون المعاملة مع القلب"[1]

فالفقر في الأصل- كما يرى الرافعي - هو فقر الأخلاق لا المال، فقد يستغني الإنسان عن المال، لكن ليس بإمكانه أن يستغني عن الأخلاق والفضائل التي تحفظ للمجتمع أمنه وسعادته،" فإن السعة سعة الخلق لا المال، وإن الفقر فقر الخُلُق لا العيش"[2]، "فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه؛ بل كل ما أمكن فهو غِنى كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها؛ بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتدم به مع الخبز القفار، كما يؤتدم باللحم وأطايب الأطعمة"[3]

وشتان بين فقر وفقر، فقر من المال، وفقر من العمل الطيب، فعند" قلة المال، يفتقر أكثر الناس، وتنخذل القوة الإنسانية، وتهلك المواهب. ولكن حين يكون فقر العمل الطيب، يستطيع كل إنسان أن يغتني، وتنبعث القوة وتعمل كل موهبة"[4]، وهكذا فالفقر من المال قد تنخذل أمامه إرادة

(1) وحي القلم، ص 470.
(2) نفسه، ص 119.
(3) نفسه، ص 345.
(4) نفسه، ص550، بتصرف يسير.

الإنسان وتقعد به أسباب الغنى فيعيش حياته فقيرًا مجبرًا على الفقر، لكن غنى النفس بإمكان كل أحد إذا صحَّ منه العزم.

الفقر بين الجبر والاختيار

يفرق الرافعي بين نوعين من الفقر، فيرى أن هناك فقرًا إجباريًّا لا يمكن لصاحبه أن يتخلص منه مهما أخذ بأسباب الغنى وجدَّ في العمل إلا بإذن الله تعالى، ويمثل الشيخ علي - بطل كتاب المساكين - هذا النوع من الفقر، فهو "رجل حط الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيرًا من المال وحب المال وذل المال"[1]

ويتساءل الرافعي في أسى:" لكن من هو الفقير؟ من هو الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه، وأينما يول وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلووا رؤوسهم، وصعَّروا خدودهم وأمالوا أعناقهم.. من هو هذا الحي الذي تنكَّرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة، ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغني، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن ينفق من حياته أضعاف ما يكسب لحياته، وإذا لم يجد ما يطعمه الجوع فأطعمه من جسمه فذلك عليه يسير، وإذ سال في الشمس وجمد في البرد فهو عند الأغنياء ذو طبيعتين؛ لأنه ليس مثلهم؛ ولأنه فقير؟"[2]

(1) المساكين، ص 36.

(2) المساكين، ص 48

إن الرافعي ليرسم هذه اللوحة الفنية المفعمة البائسة بكامل تفاصيلها للفقير الذي قلَّ حظه من الحياة الدنيا، فلا يأبه به أحد، ولا يُلتفت إليه في دروب الحياة ومناكبها، فهو" البائس في بني الإنسان الذي يكثر عليه القليل ويقل منه الكثير، ذلك هو المتناقض في نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه صغير، ولا يكبر أن يقال فيه كبير، ذلك هو الذي يشبه أن يكون عمله حركة فلكية في الأرض للآلة الغني – ذلك كله هو الفقير"[1]

والفقير فيما وصف فهو شخص في الناس" ضائعٌ حتى لا تعرف له محلًّا، ومنفرد حتى لا يجد بينهم لنفسه ظلًّا، ولا هو بالسماء وقد التهت بأقدارها حتى كأنها في عينه جمرة من البرق الخاطف، وإذا الأرض قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فإن أقبل على الناس فروا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشي، وإن استصرخهم نفروا كأنه في صوته فزع الرعد القاصف"[2]

وأما الفقر الاختياري فهو الذي قعد صاحبه عن الأخذ بأسباب الرزق، فتواكل على الآخرين، واعتمد على عطاياهم في التقوُّت والحصول على حاجاته الأساس من مسكن وملبس وغير ذلك، وليس هذا بالفقر الذي يتعاطف معه الرافعي في أدبه، يقول:" على أنه ﷺ حث على طلب اليسار،

(1) نفسه، ص 49

(2) نفس الموضع.

والتغلل من الأعمال الشريفة بالغلة والمال، فقال:" إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس" ورأى عابدًا قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه، ووصفوا له من زهده وعبادته، فقال:ﷺ:" من يعوله؟" قالوا: كلنا نعوله. فقال:" كلكم خير منه". إلى أحاديث كثيرة مروية، هي تمام القانون الأدبي الاجتماعي في الدنيا، تثبت أن الحي إن هو إلا عمل الحي"[1]

عندما يسمو الفقر

على أنَّ ضربًا آخر من (الفقر الاختياري) افتتن به الرافعي وهو الفقر النبوي الذي اختاره ﷺ لنفسه، رغم أنه كان بإمكانه أن يكون أغنى أهل الأرض قاطبة؛ لكنه اختار عيشة الفقر مترفعًا عن طغيان المادة، فكان ﷺ " على ما يصف التاريخ من الفقر والقلة، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعرض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خلة تحدث هدمًا في الحياة فيرممها المال، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير ليتدبر معيشته فيختلبها ذهبًا أو فضة، ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى

(1) وحي القلم، ص 384.

الدرهم؛ فإن المعنى الحي لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر في قدر من السعة والغنى؛ والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعسرة"[1]

فالرافعي لا يحب أن يسمِّي فقر النبي ﷺ فقرًا بالمعنى الذي رسخ في ذهن الناس، لكنه يراه نوعًا ساميًا منه يعلو به فوق زخارف الحياة مهما ازينت، ويرى أن فقره ﷺ" ليس فقرًا؛ بل هو ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك، لقيام التعاون الإنساني على أساسه العملي؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية، يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيا بها. والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني"[2]

لقد كان الرافعي يؤمن إيمانًا راسخًا أنَّ في فقر النبي ﷺ إعجازًا كبيرًا لم يتنبَّه إليه أحد، فلقد كان" فقره ﷺ من أنه يتسع في الكون لا في المال، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن، وهو خاص به ومن أين تدبرته رأيته في حقيقة معجزة تواضعت وغيرت اسمها، معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرنًا"[3]

(1) نفسه، 374.

(2) نفسه، ص 385.

(3) نفسه، ص 374.

ويرفض الرافعي أن يُسمي هذا الفقر الاختياري الذي ارتضاه النبي ﷺ زهدًا، ويرى أن اعتقاد ذلك هو من الضعف وسوء الفهم، يقول:" ولا يُسمى فقره ﷺ زهدًا كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ، ولا يحققون أصوله النفسية؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لا تفصيل لها، مفرغة لا تبيين فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غير أنها تتراءى في بقية من البصر ولا تغمرها"[1]

ويتساءل مرة أخرى عند حديثه عن شخصية النبي ﷺ" كيف كان يحمل الفقر ليكسر به شره النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثرًا من آثار السعة والضيق، فتخرج من الغني متعففًا ومن الفقير لصًّا؟ وكيف استطاع ﷺ بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه، فيجعله ما استغنى عنه الإنسان من شهوات الدنيا وترك، لا ما نال منها وجمع؟"[2]

وحول معنى الزهد الحقيقي يقول:"وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنصرف عنه وهو بك متعلق؟! فتلك سخرية ومَثَلة، وفي رأيي تشويه للجسم بروحه، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها؛ فليس يعلم إلا الله وحده، أذاك تفسير لإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب، ولقد كان ﷺ

(1) وحي القلم، ص 378.
(2) نفسه، 590.

يملك المال ويجده، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده، ولا يتركه ينبت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي"[1]

إن موقف النبي ﷺ من المال موقفٌ واضح، فهو إن امتلك المال جاد به على الآخرين، ومكان المال ليس قلبه لأنه عرض زائل، كذلك فهو لا يدعو إلى أن يعيش الرجل عالة على غيره؛ وإنما عليه أن يأخذ بأسباب الكسب شريطة تحري الحلال، فالمسلم الحق من يجد متعته الحقيقية في إنفاق ماله في وجوه الخير راضية نفسه قريرة عينه.

فقرٌ إجباريٌّ محمودٌ

ثمة نوع آخر من الفقر الإجباري المحمود أشار إليه الرافعي في حديثه عن مقاصد الصوم العليا في مقاله الموسوم بـ (شهر للثورة: فلسفة الصيام) حيث وصف الصوم بأنه "فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضًا ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئًا؛ كما يتساوى الناس جميعًا في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع"[2].

(1) نفسه، 378.
(2) وحي القلم، 394.

فعندما يمسك الصائمون عن الطعام يتساوى الأغنياء والفقراء، ويكون الافتقار إلى ما أمروا بالإمساك عنه هو القاسم المشترك بين الجميع، فيحس الغني بمعاناة الفقير، يشاركه صعوبة الحياة ولأواءها، وهذا الفقر الإجباري في الصيام "يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح؛ أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة"[1]

وهكذا يكون الفقر الإجباري محمودًا في الصيام الذي مقصده الأول (التقوى) كما أشار القرآن الكريم ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[البقرة: 183]، فالنفس لا تزكو إلا بالترفع عن زينة الدنيا ومشاركة الفقير الدائم إحساسه بالحرمان، وليس بالجشع والأَثَرة وشراهة النفس.

لقد كان الزهد سمة من سمات الرافعي تنضح بها كتاباته في (المساكين) و(وحي القلم) وغيرهما، وكانت نظرته إلى المال نظرة قنوع يكتفي منه بالقليل الذي يتبلغ به، ورسالته التي كتبها إلى محمود أبورية يواسيه بها بعد

(1) نفس الموضع.

فاقة أصابته تبرز بجلاء "أن الفقر نصفه فقر كاذب"[1]

(1) 9 ديسمبر 1916

أيها الأخ

السلام عليكم ورحمة الله.. وبعد، فقد تأملت لما في كتابكم والأمر لله، على أن رأي الشيخ علي "أن نصف الفقر فقر كاذب"؛ لأن الإنسان يتألم بالوهم أكثر مما يتألم بالحقيقة، وربما كان الضيق الذي يمضي به وقته أو المصيبة التي لابد أن تضمحل فلا يتألم المصاب أو المستضيق على قدر ذلك؛ ولكن على قدر سخطه، وبكل ما في نفسه من الغيظ ولا يرضى بذلك دون أن يُضيف إليه تاريخ مصائبه كلها؛ فيجمع على نفسه ألم العمر لحادث ساعة واحدة أو يوم واحد أو بضعة أيام.

إن الفيلسوف لا يغضب لأنه يعرف أن لا منفعة في الغضب؛ ولأن الفلسفة الصحيحة تجعل صاحبها كأنه قطعة من الزمن، وماذا يضر الليل أنه مظلم، وماذا ينفع النهار أنه مضيء، وإنما الزمن منهما جميعًا.

وكيف تريد أن تكون رابط الجأش إلا عند الخوف، وأن تكون شجاعًا إلا عند الفزع، وأن تكون فيلسوفًا إلا عند المصائب؟!

ليس من فضيلة إلا هي قائمة على أنقاض رذيلة، ولا من رذيلة إلا كان أساسها فضيلة متهدمة؛ فكن رجلًا أكثره من روحه، فإنك إن فعلت وحاولت أن تستطيع رأيت أكثر الألم بعيدًا عنك، ورأيت في كل ضائقة بابًا مفتوحًا من السماء.

وأنت الآن تحمل روحك فتنوء بك وتعجزك، ولكنك يومئذ تكون روحك هي التي تحملك فتخف بها وتخف بك، وحسبك من السعادة هذا المعنى.

رمزيته في التعبير عن الفقر

تمثِّل الرمزية سمة مميزة من سمات أدب الرافعي، ذلك أن التعبير المباشر عن الفكرة قد يُذهب عنها بهاءها وطلاوتها، واختلف النقاد حول هذه الرمزية في أدب الرجل، فمنهم من ذهب إلى القول بأنها تُضفي على أدبه نوع إبهام من شأنه تنشيط العقل وتفتيق الذهن، ومنهم من قال بأن الرافعي قد أغرق في الرمزية كثيرًا حتى أضحت كتاباته أشبه بطلاسم تحتاج في فهمها إلى عناء وكبَدٍ شديدين، والحقيقة التي لا مراء فيها أن أسلوبه يحتاج إلى دُربة وتعوُّد حتى يفهم القارئ مراميه، ويمثل هذا الاتجاه الرمزي مقال (حديث قطين).

هون عليك يا أبارية وقل مع القائل:

وإني إذا لم ألـزم الصبر طائعًا فلابد منه مُكرهًا غـير طائع

وما أنت وحدك المسكين؛ فقد تقدمك من لا يُحصيهم إلا الله، وكل شيء ينتهي، وإنما الشأن أن لا ينزل الرجل عن حد الرجولة، وما أنت حي كما تريد أن تكون، ولا كما تريد أن تكون الحياة، إنما أنت حي بشروط، ولعل منها هذا الذي تعانيه، والغيب مجهول فلست تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

اجتهد أن تستتم في الكتابة والأدب كما قلت لك، فإن لم تساعدك المعيشة فلا تساعدها على نفسك.. والسلام عليكم ورحمة الله... الداعي مصطفى صادق الرافعي.

[رسائل الرافعي، ص 35 – 36].

حديث قِطَّين

من الموضوعات التي غلبت عليها الرمزية فألبستها ثوبًا قشيبًا، وفيه يُمثل للفقر والغنى بقطين: أحدهما سمين مكتظ اللحم يرفل في النعيم، والآخر هزيل بارز العظم يعيش في فقر مدقع، ويدور الحديث بين القطين في صورة ماتعة متندرة.

يكشف الرافعي في بداية مقاله الفريد عن باعث كتابته وهو سؤال وُجِّه إلى التلاميذ في امتحان اللغة العربية بشهادة إتمام الدراسة الابتدائية لعام 1934 في موضوع الإنشاء، يقول السؤال:" تقابل قطان: أحدهما سمين تبدو عليه آثار النعمة، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله؛ فماذا يقولان إذا حدَّث كل منهما صاحبه عن معيشته؟"[1]

يتخيل الرافعي ما كان بين القطين في مشهد يجمع بين (الكوميديا) و(التراجيديا) أو (الكوميديا السوداء)، فهو يتخيل" القط الهزيل مرابطًا في زقاق، وقد طارد فأرة فانجحرت في شق، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزها، وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها"[2]

(1) وحي القلم، 45.

(2) نفسه، ص 48.

ويصور ما كان في نفس القطين وما اعتمل في داخليهما من مشاعر متناقضة مثل التي تجري في نفس كل من الغني والفقير، وإنه ليصف القط المدلل وصفًا بديعًا كأنما يصف أحد الرأسماليين الكبار، ويصف انكسار نفس القط الهزيل كأنما هو فقير ينظر بعين الحسرة إلى الغني الذي لا يعرف من الحياة إلا أحلاها، يقول:" وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوي عنايتهم، وأبصر الهزيل من بعيد فأقبل يمشي نحوه، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلع تخلع الأسد في مشيته، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها، وبسطته النعمة من أطرافه، وانقلبت في لحمه غلظًا، وفي عصبه شدة، وفي شعره بريقًا، وهو يموج في بدنه من قوة وعافية، ويكاد إهابه ينشق سمنًا وكدنة. فانكسرت نفس الهزيل، ودخلته الحسرة، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة"[1]

أجرى الرافعي على لسان القط المكتنز اللحم حديث الغِنَى فصار يتحدث بلسان الغني متعاليًا على القط الهزيل الذي اختُزلت كل أمانيه في أن يظفر بهذه الفأرة المراوغة التي توارت في جحرها، يقول:" وأقبل

(1) نفس الموضع.

السمين حتى وقف عليه، وأدركته الرحمة له، إذ رآه نحيفًا متقبِّضًا، طاوي البطن، بارز الأضلاع، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر؛ فقال له: ماذا بك، وما لي أراك متيبسًا كالميت في قبره غير أنك لم تمت، وما لك أعطيت الحياة غير أنك لم تحيَ، أوليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد، فما لك - ويحك - رجعت صورة مختزلة من الهر؛ أفلا يسقونك اللبن، ويطعمونك الشحمة واللحمة، ويأتونك بالسمك، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر، ويفتّون لك الخبز في المرق، ويُؤثرك الطفل ببعض طعامه، وتدللك الفتاة على صدرها، وتمسحك المرأة بيديها، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه؟ وما لجلدك هذا مغبرًّا كأنك لا تلطعه بلعابك، ولا تتعهده بتنظيف، وكأنك لم تر قط فتى أو فتاة يجري الدهان بريقًا في شعره أو شعرها، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما؛ وأراك متزايل الأعضاء متفككًا حتى ضعُفتَ وجهدتَ، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك، وكأن جنبيك لم يعرفا طِنْفِسة ولا حَشِيَّة ولا وسادة ولا بساطًا ولا طرازًا، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر"[1]

(1) نفسه، 48 - 49.

ثم يكشف الرافعي عن شيء من فلسفة الفقر العالية كما يراها هو" قال الهزيل: وإن لك لحمة وشحمة، ولبنًا وسمكًا، وجبنًا وفتاتًا، وإنك لتقضي يومك تَلْطَع جلدك ماسحًا وغاسلًا، أو تتطرح على الوسائد والطنافس نائمًا ومتمددًا، أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معًا، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة، وأحكمت طبعًا ونقضت طباعًا، وربحت شبعًا وخسرت لذة، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك، وحملوك وأعجزوك أن تستقل، وقد صرت معهم كالدجاجة تُسَمَّن لتُذبح، غير أنهم يذبحونك دلالًا وملالًا. إنك لتأكل من خِوَان أصحابك، وتنظر إليهم يأكلون، وتطمع في مؤاكلتهم، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شيء غير هذا، وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتُحتبس فيها"[1]، فما فائدة أن يعيش المرء متبلدًا لا يهتم إلا لطعامه وشرابه، بينما ينصرف عن مقاصد الحياة والتفكر في آيات الله في الكون؟! وأي لذة يجدها عندما يأتيه كل شيء طائعًا دون عناء أو كدٍّ؟!.

ويُجري الرافعي الحكمة على لسان القط الهزيل أو الفقير مخاطبًا القط الغني بقوله: "إن كان أول ما في الحياة أن تأكل فأهون ما في الحياة أن تأكل، وما يقتلك شيء كاستواء الحال، ولا يحييك شيء كتفاوتها؛ والبطن

(1) وحي القلم، 49.

لا يتجاوز البطن ولذته لذته وحدها، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك، وعن العلل الباطنة التي تحركنا إلى لذات أعضائنا، ومتاع أرواحنا، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر، وتجعلنا نعيش من قِبَل الجسم كله، لا من قبل المعدة وحدها؟"[1])

إن الرافعي هنا يُعظم قيمة العمل والإنتاج ويعيب الروح (التواكلية) التي تسيطر على بعض الأغنياء الذين لا يكدُّون ولا يتعبون في سبيل الحصول على رزقهم، وبالتالي تُصيبهم البلادة ويفقدون المتعة الكبيرة التي يتحصل عليها أقرانهم ممن يضربون في مناكب الأرض بحثًا عن لقمة العيش.

ويختم الرافعي مقاله ختامًا إبداعيًّا مثيرًا يُذكِّرنا بقصص كتابه الأثير (كليلة ودمنة) التي طالما وظفها كثيرًا في مقالاته، فبينما الحديث على أشدِّه بين القطين؛ إذ بالفأرة تستغل هذه المناظرة وتنطلق من جحرها كالسهم ليفقد الفأر الهزيل أمله في التقوِّت" ولمحها الهزيل، كما تلمح العين برقًا أومض وانطفأ. فقال للسمين: اذهب راشدًا، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة، أن الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق، وكذلك أمثالك في الدنيا، هم بألفاظهم في الأعلى وبمعانيهم في الأسفل"[2]

(1) نفسه، ص 49.

(2) نفسه، ص 51.

إن في هذه المقالة – كما يرى تلميذه سعيد العريان – لشيئًا من خلق الرافعي لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه" ذلك هو طبيعة الرضا بما هو كائن؛ فقد كان ذلك من ألزم صفاته له؛ فكان دائمًا منبسط الوجه، يقنع نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يشعر بها نفسه، ومن كل فادحة تنزل به خيرًا يترقبه ويهيء له نفسه"[1]، إذًا، فالمقال – كما قلنا – يُعبِّر بجلاء عن فلسفة الرافعي في قضية الفقر والغنى.

الواقعية في تناول الفقر

إذا كان مقال (حديث قطين) قد مثَّل لرمزية الرافعي – على النحو الذي عرضنا له – حيث إن منشأ القصة خيالي في الأصل يعتمد على (الفانتازيا)، فإن هناك اتجاهًا آخر نجده في أدب الرجل الذي وظف الواقع أيضًا كأنه جزء منه لا تعوزه الحقيقة إلى الرمز؛ لأن في الحقيقة ما يكفي – وإن أضاف إليها شيئًا من خياله – لكنه لا يعدو الحقيقة التي يعيشها الفقراء في دنيا الناس.

ولعل مقال (أحلام في الشارع) يمثل بجلاء هذا الاتجاه الواقعي الذي يتناول شريحة من أطفال الشوارع، وقصة هذا المقال كما يقرر

(1) حياة الرافعي، ص 193.

العريان[1] أنه كان عائدًا مع الرافعي بعد سهرة طويلة في طنطا، فمرَّا بطفل وطفلة ينامان على عتبة أحد البنوك، واسترعى انتباه الرافعي أن البنت كانت تنام على ذراع وتُلقي بالأخرى على أخيها كأنها تحميه؛ فاهتز لذلك، فلما كان اليوم التالي أملى على العريان هذا المقال، وأطلق عليهما اسم (أحمد) و(أمينة).

في هذا المقال جرعة هائلة من المشاعر الإنسانية تمثل المعاناة التي تعالجها عينة من الفقراء وهم أطفال الشوارع، وهي مشاعرٌ تجعل القارئ مهمومًا ببطلي القصة، يعيش مأساتهما ويحزن لحزنهما، وما أقسى هذه المفارقة عندما تضيق الدنيا بالطفلين فلا يجدان إلا عتبة البنك الذي يمثل قمة الرأسمالية بطغيانها وجبروتها، فعلى عتبة البنك" نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوًّا رخاميًّا في برده وصلابته على جسميهما. الطفل متكبكب في ثوبه كأنه جسم قُطّع ورُكمت أعضاؤه بعضها على بعض، وسجيت بثوب، ورمي الرأس من فوقها فمال على خده"

أما الفتاة فهي – حسب تصوير الرافعي – صاحبة النصيب الأكبر من المعاناة، ذلك أنها "من أجل أنها أنثى قد خُلقت لتلد، خُلق لها قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها. من أجل أنها أعدت للأمومة، تتألم دائمًا في الحياة

(1) راجع قصة المقال في المرجع السابق، ص194.

آلامًا فيها معنى انفجار الدم. من أجل أنها هي التي تزيد الوجود، يزيد هذا الوجود دائمًا في أحزانها. وإذا كانت بطبيعتها تقاسي الأم لا يطاق حين تلد فرحها، فكيف بها في الحزن؟!" [1]

وكأننا بالرافعي يرسم للفتاة وأخيها صورة زيتية ناطقة ذات ظلال وألوان داكنة وباهتة، فالفتاة" كأنها من الهزال رسم مخطط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذْ لم تُعجبه. كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة: إنها صارت قشًّا. نائمة في صورة ميتة، أو كميتة في صورة نائمة؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها، وبقي وجه أخيها في الظل؛ كأن في السماء ملكًا وجَّه المصباح إليها وحدها، إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامة هَمّ؛ وأن في وجهها هي كل همها وهمّ أخيها"[2]

يتحدث الطفل إلى أخته في مقارنة مثيرة للأسى، لكنها تكشف حقيقة هذا المجتمع الذي لا يكترث للفقير ولا ينظر إليه إلا شذرًا، يقول الطفل في وصف بعض الأطفال الذين يظهر عليهم أثر النعمة:" إنهم يلبسون لحمًا على عظامهم؛ أما نحن فنلبس على عظامنا جلدًا كجلد الحذاء؛ إنهم أولاد أهليهم؛ أما نحن فأولاد الأرض؛ هم أطفال، ونحن حطب إنساني يابس؛

(1) وحي القلم، ص 70

(2) نفس الموضع.

يعيشون في الحياة ثم يموتون؛ أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت، إلى أن نموت؛ لهم عيش وموت، ولنا الموت مكررًا"[1]

وفي نهاية المقال يضع الرافعي رؤيته للعدالة الاجتماعية الناجزة، وكيفية تحقيق التكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء، فنراه يقول على لسان الصغير (أحمد) الذي يتحدث متخيلًا أنه سيكون يومًا ما مسئولًا صاحب سلطة ينهي ويأمر:" سأعمد إلى الأغنياء فأردّهم بالقوة إلى الإنسانية، وأحملهم عليها حملًا، أصلح فيهم صفاتها التي أفسدها الترف واللين والنعمة، ثم أصلح ما أَخَلَّ به الفقر من صفات الإنسانية بالفقراء، وأحملهم على ذلك حملًا، فيستوي هؤلاء وهؤلاء، ويتقاربون على أصل في الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون. ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادي الصفات الإنسانية في أفرادها، فتقطع ما بينهم، فهم أعداء في وطنهم، وإن كان اسمهم أهل وطنهم"[2]

***

ثمة مقالات أخرى تناول فيها الرافعي التفاوت الطبقي بين الناس في المجتمع المصري في مقاله (الطفولتان)، فـ(عصمت) ابن الباشا "طفل مترف يكاد ينعصر لينًا، وتراه يَرِف رفيفًا مما نشأ في ظلال العز، كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حول الشجرة. وهو بين لِدَاته من الصبيان

(1) نفسه، ص 72

(2) نفسه، ص 75

كالشوكة الخضراء في أملودها الريان، لها منظر الشوكة؛ على مجسَّة لينة ناعمة تُكَذِّب أنها شوكة إلا أن تيبس ونتوقَّح"[1]، ثم كان أن هَامَ (عصمت) على وجهه في الأزقة والحارات؛ فرأى حيوات أخرى غير التي يعيشها.. رأى الفقر متجسدًا في أطفال في مثل سنه يقاسون مرارة الحياة والمعاناة، حتى الأحلام لم تعد متاحة لهم.

ويختم مقاله ختامًا موجعًا عندما يأتي الحارس المُكلَّف لاهثًا للبحث عن الولد فيجده واقفًا بملابسه المتربة إزاء (جعلص) فيظن أنه قد تعرض له بسوء؛ فيصفعه صفعة تنخلع لها القلوب، يقول الرافعي:" يا للعدالة! كانت الصفعة على وجه ابن الفقير، وكان الباكي منها ابن الغني! وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة؛ فليس غنيٌّ بطل الحرب في المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه"[2]

وماذا عن فقر الرافعي؟!

لم يكن الرافعي بالغني المترف الذي عاش في سعة من الرزق ورغد من العيش؛ لكنه كان كغالبية المصريين الذين يعانون في حياتهم، تعتريهم الحاجة بين الفينة والأخرى، ساعد على ذلك عدة عوامل منها درجته الوظيفية البسيطة في المحاكم، وكثرة تنقله بين البلاد، وقبل هذا وذاك كثرة عياله.

(1) وحي القلم، ص 62.

(2) نفسه، ص 69.

لكن هذا لا يعني أن الرجل كان يعيش حياة الفقر المدقع الذي يؤرق صاحبه كما ادعت الأستاذة نعمات أحمد فؤاد في كتابها (دراسة في أدب الرافعي) عندما أرادت أن تنتصر للأستاذ العقاد بشكل غير مباشر، فقامت بتشريح بعض كتابات الرافعي ورسائله إلى محمود أبورية لترصد شكاياته من المرض والفقر، ومن ثم أرجعت أدب الرجل إلى شخص:

- صاحب عاهة (أصمّ).
- مريض يعاني السعال وألم المفاصل والأسنان، فضلًا عن الصداع.
- فقير كثير العيال[1].

والحقيقة أنَّها قد تجنَّت كثيرًا على الرجل عندما تربصت بكتاباته لتخرج بهذه النتيجة متناسية أن العقاد قد عانى الفقر هو الآخر وباع مكتبته مرتين، رغم أنه فردٌ واحدٌ يعيش لنفسه، ولم يك ذا زوجة وبنين كما الرافعي، وليرجع من أراد إلى صدر كتاب المحامي لطفي جمعة، وفيه صورة ضوئية من خطاب بخط العقاد يقول فيه: "لقد طلبت من كل

(1) راجع ما سجلته في كتابها (دراسة في أدب الرافعي) لاسيما الفصل المعنون بـ (شخصية الرافعي)، ص 11 وما بعدها.

الناس أن يساعدوني، فأداروا وجوههم وآذانهم.. فلا تخيب أملي، فأنا لا أجد قوت يومي"[1]

ولقد أغفلت الأستاذة نعمات حديث الرافعي مع أبي رية عن بنائه منزلًا جديدًا لأولاده في طنطا، وتكلفة إرساله ولده محمد للتعلم في جامعة ليون بفرنسا، وربما لم ترد أن يعرف القارئ أن الرافعي كان رياضيًّا يتدرب على رفع الأثقال حقيقة لا مجازًا.

فمتى كان الفقر عيبًا؟!

ومتى كان المرض عائقًا عن الإبداع؟!

وهل من الموضوعية هذا النقد الذي ينتصر لطرف على حساب آخر؟!

***

وإجمالا؛ فقد أجاد الرافعي في التعبير عن آلام الفقراء ومعاناتهم كما لو كان واحدًا منهم، فتارة نراه يرمز إلى الغنى والفقر بطفلين، وتارة أخرى يجمح بخياله رامزًا لهما بقطين ويجعلهما مدار كلامه فيسبح بالنفس

(1) يراجع: مقال أنيس منصور (كيف لا ألعن القلم والورق) بجريدة الشرق الأوسط، الثلاثاء 25 صفر 1429 هـ 4 مارس 2008 العدد 10689. ومقال الدكتور حلمي القاعود (باع مكتبته مرتين ليأكل)، الأهرام، الخميس 8 من جمادي الآخرة 1434 هـ 18 أبريل 2013 السنة 137 العدد 46154.

في أرجاء الكون، يستلهم من الفقر معانيه الدقيقة المختلفة، ويبحث في مظاهره التي تلقي بظلالها الداكنة على النفس والمجتمع، ثم نراه يستثني (سمو الفقر) في حياة النبي ﷺ، كما يستثني نوعًا إيجابيًّا من الفقر الإجباري وهو الصيام بفلسفته العالية.

obeikandl.com